عوامل سيادة المذهب المالكي في بلاد المغـــــــرب

دكتورة

جميلة مبطي حامد المسعودي الهذلي

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد

قسم التاريخ والحضارة الإسلامية

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى – المملكة العربية السعودية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبين، وبعد:

فقد ظهرت في بلاد المغرب عدة مذاهب دينية ابتداء من منتصف القرن الثاني الهجري، وكان المذهب الأوزاعي(١)، والحنفي(٢) من أوائل تلك المذاهب التي دخلت بلاد المغرب، ثم ظهر المذهب المالكي، كما ظهرت إلى جانب هذه المذاهب الفقهية السنية بعض البدع الخارجية والشيعية(٣)، إلا أن كل هذه المذاهب والبدع مثَّل وجودها مرحلة زمنية محددة، وارتبط ظهورها بظروف سياسية وثقافية واجتماعية معينة، وزالت بزوال السبب، ولم يبق صامداً إلا المذهب المالكي، الذي بدأ انتشاره من إفريقية (تونس) وامتد إلى المغرب الأقصى، وأصبح المذهب الرسمي لبلاد المغرب، واستمرت سيادة المذهب المالكي إلى وقتنا الحاضر.

إن هذا التميز والاستمرارية التي مثلها المذهب المالكي في بلاد المغرب،

(١) الأوزاعي : هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمر، بن يحمد، كان يسكن بمحلة الأوزاع بدمشق إمام أهل الشام، ولم يكن بالشام أعلم منه، كان إمام أهل زمانه في الشام، أجاب عن سبعين ألف مسألة، ولد سنة ٨٨هـ، ثم انتقل إلى بيروت، وأنشأ مذهباً فقهياً لنفسه أخذ به الكثيرون، ومنهم بلاد الأندلس، وكان كثير الحديث والعلم، توفي سنة ١٥٧هـ. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، إشراف شعيب الأرنؤوط، حقق هذا الجزء علي أبو زيد، مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ج٧، ص١٠٧.

(٢) الحنفي: ينسب إلى الإمام النعمان بن ثابت الكوفي، ولد سنة ٨٠هـ، انتشر مذهبه بالكوفة والشام والعراق، وما وراء النهر، له أتباع كثيرون، توفي ببغداد سنة ١٥٠هـ، ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، مكتبة دار التراث . القاهرة، ج٣، ص٦٠، محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٤٩هـ، ص٢٨.

(٣) الناصري: أحمد بن خالد المالكي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ج١، ص٦١.

استرعت انتباهي للبحث عن العوامل التي أسهمت في سيادته، وانقسمت هذه العوامل إلى ثلاثة أقسام، أتناول كل قسم منها في مبحث خاص بها :

المبحث الأول :

١) عوامل تتعلق بالإمام مالك :

كان لشخصية الإمام مالك أثر كبير في انتشار مذهبه، فقد تميز بالعديد من المميزات، منها : العلم والفضل :

١ . العلم: حفظ مالك القرآن الكريم في سن صغيرة، ثم حفظ الحديث النبوي الشريف(١)، وجلس للتدريس وهو في السابعة عشرة من عمره(٢)، ولم يُفتِ حتى شهد له أكثر من سبعين عالماً أنه أهل للفتيا(٣)، فجلس للفتيا وهو في الحادية والعشرين من عمره(٤).

تتلمذ الإمام مالك على عدد من علماء المدينة بلغ عددهم أكثر من مائة عالم(٥)، كان من أشهرهم ابن هرمز الذي لازمه مالك أكثر من خمسة عشر عاماً،

(١) محمد أبو زهرة، مالك حياته وعصره . آراؤه وفقهه، دار الفكر العربي للنشر، ودار الثقافة العربية للنشر، ص٢١.

(٢) مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ص٥٥.

(٣) جلال الدين السيوطي، تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك، تحقيق : هشام بن محمد حجر الحسيني، الدار البيضاء . المغرب، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، ص٢٦.

(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج٨، حقق الجزء الثامن نذير حمدان، الطبعة الحادية عشرة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص٥٠.

(٥) الزواوي، عيسى بن مسعود، مناقب سيدنا الإمام مالك، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص٨٦.

فكان يأتيه صباحاً حتى صلاة الظهر[١]، وابن شهاب الزهري[٢]، وربيعة[٣] بن عبد الرحمن، ونافع[٤] وغيرهم.

عُرف الإمام مالك بحرصه على طلب العلم وصبره وتمتعه بحافظة قوية، حتى قيل إنه أحفظ أهل زمانه[٥]، حتى إنه يسمع أكثر من بضعاً وأربعين حديثاً في جلسة واحدة، ويأتي إلى إمامه الزهري، فيُسمعه جميع ما حدث به إلا البضع[٦]، وكان مالك من

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج٨، ص ٥٨.

(٢) الزهري : هو محمد بن مسلم بن عبد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة القرشي الزهري يكنى أبا بكر، ولد سنة ٥٨هـ، روى مالك عنه في الموطأ ١٣٢ حديثاً، توفي سنة ١٢٤هـ، ابن عبد البر، أبو عمر يوسف النمري الأندلسي، تجريد التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد أو التقصي لحديث الموطأ وشيوخ الإمام مالك، وفي آخره : ما لم يذكر في الموطأ من رواية يحيى بن يحيى عن الإمام مالك، عن نسخة شيخ الإسلام عارف حكمة في المدينة المنورة، عنيت بنسخه دار الكتب المصرية مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية بيروت . لبنان، ص١١٦ . ١١٧.

(٣) ربيعة بن أبي عبد الرحمن أبو عثمان، واسم أبي عبد الرحمن فروخ مولى ربيعة بن عبد الله بن الهدير التميمي تيم قريش، ويقال له ربيعة الرأي، كان أحد فقهاء المدينة الذين كانت الفتوى تدور عليهم، روى عنه مالك في الموطأ ١٢ حديثاً، توفي سنة ١٣٠هـ، تجريد التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ص٣٤.

(٤) نافع : مولى عبد الله بن عمر يكنى أبا عبد الله الديلمي، أصابه عبد الله بن عمر في غزواته، وكان ثقة حافظاً، قال مالك : «نشر نافع عن ابن عمر علماً جماً»، مات بالمدينة سنة ١١٧هـ في خلافه هشام بن عبد الملك، أخذ عنه مالك ثمانين حديثاً ذكرهم في الموطأ، تجريد التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ص١٧٠.

(٥) السيوطي؛ تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك، ص٢٨.

(٦) عبد الغني الدقر، الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، دار القلم . دمشق، الطبعة الثالثة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص٧١.

أشد الناس تمسكاً بكتاب الله وسنة الرسول ρ، قال مالك : «ما كان في كتاب الله أو فيما أحكمته السنة عن رسول الله ρ فهو حق لا شك فيه، وما كان من اجتهاد الرأي فالله أعلم به»(١).

بلغ الذروة في علم السنة والفقه حتى أثنى عليه كثير من العلماء، ورأى بعضهم أن حديث النبي ρ والمروي عن الثقات عن سفيان بن عيينة، عن أبي جريج، عن أبي الزبير، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ρ قال : «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم، فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة»(٢)، قال سفيان بن عيينة : نرى أن المراد بهذا الحديث مالك(٣).

وقال عنه شيخه ابن هرمز : إنه عالم الناس(٤).

وقال الشافعي : «مالك أستاذي، وعنه أخذت العلم، وما أحداً أمنَّ علي من مالك، وجعلت مالكاً حجة بيني وبين الله، وإذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب، ولم

(١) الزواوي، مناقب الإمام مالك، ص٨٦.

(٢) الترمذي، أبو عيسى، الجامع الكبير، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت . لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، الجزء الرابع، ص٤١٢/ ٤١٣، وقال : هذا حديث حسن، والحاكم ابن عبد الله محمد النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه ج١، ص١٦٨.

(٣) القاضي عياض، أبو الفضل بن موسى اليحصبي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ضبطه وصححه محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ج١، ص٣٢.

(٤) ابن فرحون : الديباج، ج١، ص٧٤.

يبلغ أحد مبلغ مالك في العلم»[١].

واعترف الإمام أحمد بن حنبل . أيضاً . بعلم مالك، فقال : هو إمام في الحديث والفقه[٢].

وقال عنه سفيان بن عيينة : مالك عالم أهل الحجاز، وهو حجة زمانه[٣].

فكل هذه الشهادات من علماء عظماء معاصرين له تدل على سعة علمه،وأنه أفضل علماء عصره، وإليه تُشد الركاب لملازمته والأخذ عنه.

٢) الفضل : كان الإمام مالك من أوائل المدونين للحديث الصحيح، وأول من تكلم في الغريب منه[٤]، وكان إماماً في نقد الرجال، إذا شك في الحديث تركه كله[٥]، كما كان مبتعداً عن الجدل وأصحاب الأهواء، وكان يقول في ذلك: المراء والجدال في العلم يذهب بنور العلم من قلب العبد[٦]، وكان لديه طريقة جميلة في الرد على أهل الأهواء، فإذا أكثر عليه أحدهم رد عليه قائلاً : «أما إني فعلى بينة من ديني، وأما أنت فشاك، اذهب إلى شاك مثلك فخاصمه»[٧].

ورث الإمام مالك فقه الصحابة من شيوخه الذين تلقوه عن فقهاء المدينة

(١) ابن فرحون: الديباج، ج١، ص٧٤.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٨، ص٩٩.
(٣) ابن فرحون: المصدر السابق، ص٧٤.
(٤) ابن فرحون: المصدر السابق، ص٧٧.
(٥) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٨، ص٧١.
(٦) ابن فرحون، المصدر السابق، ج١، ص١١٥.
(٧) الذهبي، المصدر السابق نفسه، ص٩٩.

السبعة[١]، فتميز مالك بأنه حامل فقه أصحاب النبي ρ خير البشر من بعده.

ومما زاد من مكانة الإمام مالك وفضله أنه من أهل المدينة، بلد النبي ρ ومنزله، وبها نزل الوحي ببقية الشرائع السماوية، وفيها نصر الله دينه وأعز نبيه، وفيها تأسست أول دولة إسلامية، وفيها تربت الطائفة المختارة (الصحابة)، على يده ρ وحملوا لواء الدعوة من بعده، وهم خير الناس وأفضلهم بعد الرسول ρ[٢].

فدل ذلك كله على فضل علم أهل المدينة على غيره؛ لأنه العلم المستقى مباشرة من سنة الرسول ρ فكان أكثر حجة وقبولاً عند الناس.

قال زيد بن ثابت : إذا رأيت أهل المدينة على شيء فاعلم أنه السنة[٣].

وقال عبد الله بن عمر : لو أن الناس إذا وقعت فتنة ردوا الأمر فيه إلى أهل المدينة، فإذا اجتمعوا على شيء صح الأمر، ولكنه إذا ناعق تبعه الناس[٤].

---

(١) السبعة هم : أبو عبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود (ت٩٨هـ)، أبو عبد الله بن عروة بن الزبير بن العوام (ت٩٤هـ)، أبو محمد القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق (ت١٠١هـ)، أبو محمد سعيد بن المسيب القرشي (ت٩٤هـ)، أبو أيوب، ويقال أبو عبد الرحمن وأبو عبد الله سليمان بن يسار مولى ميمونة أم المؤمنين رضي الله عنهم (ت١٠٧هـ)، خارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري (ت٩٩هـ)، أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام المخزومي (ت٩٤هـ)، مخلوف، شجرة النور الزكية، ص٢٠.

(٢) الرجراجي، أبو الحسين بن سعيد، مناهج التحصيل ونتائج لطائف التأويل في شرح المدونة وحل مشكلاتها، تقديم علي علي لقم، تحقيق أبو الفضل الدمياطي، مركز التراث الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع.

(٣) عياض، ترتيب المدارك، ج١، ص١٩.

(٤) عياض، المصدر السابق نفسه، ج١، ص١٩.

وأيضاً كان لنقاء المدينة وخلوها من البدع والفرق الشاذة التي ظهرت كالتشيع والمعتزلة والزندقة وغيرها، أكبر الأثر في تفضيل علم المدينة والأخذ برأي أهلها[١]، وقد أخذه مالك نفسه من علماء المدينة، ولم يخرج منها لطلب العلم، ووافقه الليث بن سعد[٢]، وتلاميذ المدرسة المالكية ومنهم ابن الحكم[٣] شيخ المدرسة المالكية بمصر، حيث يقول: «إذا جاوز الحديث الحرتين ضعفت شجاعته»[٤].

يضاف إلى ذلك كله شخصية مالك المحبة لطلاب العلم والاهتمام بهم بشكل عام والمغاربة بشكل خاص، فكان مالك إذا دخل عليه ابن غانم[٥] وهو من أهل

(١) عمر الجيدي، مباحث في المذهب المالكي، الطبعة الأولى ١٩٩٣م، ص٣٦.

(٢) الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي أبو الحارث المصري، أحد الأعلام، ولد سنة ٦٤هـ، وروي عن الزهري وعطاء ونافع، وغيرهم، قال ابن سعد : كان ثقة كثير الحديث، كان مفتياً بمصر، مات سنة ١٧٥هـ، ابن العماد، شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العسكري الحنبلي الدمشقي، شذرات الذهب، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير . دمشق .، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ج٢، ص٣٣٩.

(٣) ابن الحكم هو أبو محمد عبد الله بن الحكم بن أعين بن الليث، مولى عُميرة . امرأة من موالي عثمان بن عفان . سمع من مالك والليث، وكان فقيهاً، وهو شيخ المالكية بمصر، كان أعلم أصحاب مالك بمختلف قوله، وكان صديقاً للإمام الشافعي، وعليه نزل حين جاء من بغداد، البغدادي إسماعيل باشا، هداية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، وكالة المعارف، اسطنبول، ١٩٥١م، أعادت طبعه بالأوفست دار إحياء التراث العربي، بيروت . لبنان، ج٣، ص١٨.

(٤) الزواوي، مناقب سيدنا الإمام مالك، ص٩٢.

(٥) ابن غانم هو عبد الله بن عمر بن غانم بن شرحبيل، كنيته أبو عبد الرحمن، ولد سنة ١٢٨هـ، سمع من مالك ومن سفيان الثوري، تولى قضاء إفريقية سنة ١٧١هـ في حياة مالك، وكانت ولايته أكثر من تسعة عشر عاماً، توفي في ربيع الآخر سنة ١٩٠هـ، وقيل ١٩٦هـ، =

المغرب أجلسه إلى جانبه قائلاً : «إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه»[١]، ويسأله عن أخبار المغرب، ولشدة اهتمامه بأهل المغرب كان أصحاب مالك يقولون : شغله المغرب عنا[٢].

ولشدة حب مالك لابن غانم عرض عليه أن يزوجه ابنته ويقوم عنده، فامتنع من المقام، وقال له : إن أخرجتها إلى القيروان تزوجتها[٣].

وكان مالك شديد التواضع مع تلاميذه في بلاد المغرب، حريصاً عليهم وعلى ما ينفعهم، وهم كانوا يبادلونه هذا التواصل، فكانت تقع بينهم الكثير من المراسلات لطلب رأي الإمام أو حتى لإخباره بأحوال المغرب، ومن ذلك أن ابن فروخ[٤] كتب إلى

= عياض، ترتيب المدارك، ج١، ص١٧٩/ ١٨٠، تراجم أغلبية مستخرجه من مدارك القاضي عياض، تحقيق مجد الطيالسي، نشر الجامعة التونسية، مطبعة الجمهورية التونسية ١٩٦٨م، ص٢١.

(١) الدباغ، أبو زيد عبد الرحمن الأنصاري، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله وعلق عليه أبو الفضل أبو القاسم عيسى بن ناجي التنوخي، تصحيح وتعليق إبراهيم شبوخ، مكتبة الخانجي بمصر، الطبعة الثانية ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ص٢٩٠.

(٢) الدباغ، المصدر السابق، ص٢٩١.

(٣) عياض، ترتيب المدارك، ج١، ص١٨٠.

(٤) ابن فروخ، أبو محمد عبد الله بن فروخ الفارسي، كان حافظاً للحديث والفقه، رحل إلى المشرق، وسمع من مالك وسفيان الثوري، كان يميل إلى طريقة أهل النظر والاستدلال، وكان مالك يكرمه ويرى له فضلاً، ويقول لأصحابه : هذا فقيه أهل المغرب، سكن القيروان وكان يعلم بها، المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونسائهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق بشير البكوش، راجعه محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ج١، ص١٧٧.

مالك يسأله حول إمكانية الرد على أهل البدع، وبعضهم جعل رسولاً خاصاً بينه وبين مالك. فابن غانم كان يكتب إلى ابن كنانة فيسأل له الإمام مالك عن بعض الأحكام[١].

المبحث الثاني : عوامل تتعلق بالمذهب المالكي :

تميز المذهب المالكي بالعديد من المزايا العلمية التي أسهمت في قبوله وتفضيله على غيره من المذاهب في بلاد المغرب، وأبرز هذه العوامل:

(١) كثرة مصادره، وتعدد أصوله، فهو أوسع فقه على الإطلاق، اشتملت أصوله على القرآن والسنة النبوية، والإجماع، والقياس، وعمل أهل المدينة، وقول الصحابي، والاستحسان، وسد الذرائع، والاستصحاب، وخبر الواحد، والمصالح المرسلة، ومراعاة الخلاف، والعرف والعادة[٢].

وقد أعطت هذه الكثرة في المصادر والأصول القوة والحيوية وعدم الجمود، وسهلت على العلماء سبل الاجتهاد والاستنباط في الحوادث التي لم يرد فيها نص من القرآن أو السنة[٣].

(٢) المرونة والتجديد: لم يجعل مطلق النص من الكتاب والسنة قطعياً، بل فتح الباب لوسائل الاستنباط والقياس، وبذلك لا يتوقف الفقيه عند العبارة، بل يحاول ربط الأصول ببعضها، ويبعد عن المعنى الغريب[٤]. ويراعى الإمام مالك

(١) المالكي، المصدر السابق نفسه، ص٢٢٠.
(٢) عمر الجيدي، مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، ص٢٥٧.
(٣) نجم الدين الهنتاتي، المذهب المالكي بالمغرب الإسلامي، إلى منتصف القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، منشورات تبر الزمان، تونس، ٢٠٠٤م، ص٦٤.
(٤) ابو زهرة، مالك حياته وعصره ص٤٥٧.

المصلحة وأنها إما أن تؤخذ من النص، أو من عموم ما ورد من النصوص، مثل قوله تعالى: ❐◆✍♦⍟⍁➔⍁•✍ ↘♦■❶↘▤↗▱⇗⑨⍟✂❼ ×⇦⍁♎⍟✍ ⍁❷❍⇳⍁❷●♦❷⍁ ▤[1]، وقوله ρ : «لا ضرر ولا إضرار»[2]، والمصلحة هي التي ليس لها في كتاب الله أمر ونهي، والتي يكون نفعها أكثر من ضررها، وجعل من وسائل تحقيقها القياس والاستحسان عن طريق ترجيح الاستدلال المرسل، وسد الذرائع، والعرف والعادة[3].

(٣) توسعه في الاستفادة من الأصول، فيقبل بمفهوم المخالفة والموافقة ودلالة السياق، ودلالة التبعية بخلاف غيره من المذاهب، فقد استدل الإمام مالك رحمه الله . بقوله تعالى: ❐◆✂✍⍁↘❶♦③↘⍁✍• ❐◆✂✍⍟↘⍁⇔⍁✍♦✍⍟↘⍁ ♦ ❐◆✂✍⍟↘♦⍁☺⍁❷❸◆

(١) سورة الحج : الآية (٧٨).

(٢) الدارقطني، علي بن عمر أبو الحسن، سنن الدارقطني ٢٣٤٥/ ٢١٦ تحقيق، عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ج٣، ص٤٧٠، الحاكم، المستدرك على الصحيحين، قال هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه، ج٢، ص٦٦، بن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، السنن، تحقيق، شعيب الأرناؤوط، محمد عامل قره بالي، أحمد برهوم، دار الرسالة العالمية، دمشق سوريا، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، حديث رقم ٢٣٤١، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره، ج٣، ص٤٣٢، ٤٤٦١/ ٨٥ قال عن إسماعيل بن الصفار عن عباس بن محمد، عن عثمان بن محمد عن عثمان بن ربيعة عن أبي عبد الرحمن عن عبد العزيز بن محمد عن عمرو بن يحيى عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري، أن النبي ρ قال : «لا ضرر وإضرار».

(٣) ابو زهرة، المصدر السابق نفسه، ص٤٥٧.

[illegible][1]، على عدم وجوب الزكاة في الخيل لاقترانها بالحمير التي لا زكاة فيها إجماعاً ونصاً[2].

(٤) الترابط بين أصول الاستنباط في المذهب المالكي، بحيث يكمل بعضها بعضاً، وتستمد كلها من النص الإسلامي[3].

(٥) انفتاحه على غيره من المذاهب، وعدم التعصب لرأيه، ومراعاة الخلاف، وفي ذلك قول مشهور للإمام مالك : «لا تجوز الفتوى إلا لمن علم ما اختلف الناس فيه»[4]، وللاختلاف فوائد، منها إحياء المذهب، وتوسيع آفاقه وانتصار المذاهب بالأدلة مع التجرد والإنصاف[5].

(٦) الجمع بين أصول مدرسة أهل الأثر (الحديث) وأصول أهل الرأي، فمنزلة الأثر عند مالك وأتباعه تقع في المرتبة الأولى، فمالك إمام أهل الحجاز، موطن أهل الحديث، وموطوءه، كتاب أثر وحديث، فالأثر معتمدة والحديث مستندة، وأما

(١) سورة النحل : الآية (٨).

(٢) محمد التأويل، خصائص المذهب المالكي، الدروس الحسنية التي تُلقى بحضرة أمير المؤمنين الملك محمد السادس بمناسبة شهر رمضان، http: //wwdocstoc. com، ص٤.

(٣) مالك حياته وعصره، ص٤٥٧.

(٤) ابن الفخار القرطبي، أبو عبد الله محمد بن عمر، الانتصار لأهل المدينة، تحقيق محمد التمسماني الإدريسي، مركز الدراسات والأبحاث، إحياء التراث، الرابطة المحمدية للعلماء، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، الرباط . المغرب، ص١٧.

(٥) ابن الفخار القرطبي، المصدر السابق ص١٨.

الرأي فقد كان لمالك حظ كبير منه، وأصوله وفروعه خير شاهد على ذلك[١].

(٧) واقعية المذهب المالكي في نوازله وفروعه المختلفة، فهو يتكلم في الأمور التي تلامس الواقع ومن الممكن حدوثها، أما الأمور المبنية على الخيال فكان يبتعد عن الخوض فيها، وكان إذا سئل عن شيء لم يقع يقول للسائل : «سل عما يكون ودع ما لا يكون»، وربما أعرض عن السائل، فإذا ألح عليه السائل في معرفة الجواب قال له: «لو سألت عما تنتفع به لأجبتك»[٢].

(٨) براءة المذهب المالكي من البدع المنحرفة، فقد عرف المذهب المالكي بالوسطية والاعتدال في أحكامه ومواقفه وفي أصوله وفروعه، فلا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا تشديد، ولا غرابة ولا شذوذ ولا تكفير، وكان الإمام مالك كثيراً ما يتمثل بالبيت القائل :

وخير أمور الدين ما كان سنة وشر الأمور المحدثات البدائع[٣]

ونتيجة لكل ما سبق نلاحظ حرص أهل المغرب على التمسك بالمذهب المالكي، ولم يكن ذلك تعصباً أو تقليداً من غير وعي أو اقتناع، بل وجدوا في التمسك به اتباعاً للسنة المحمدية الصحيحة التي ورثها الإمام مالك عن الصحابة، ولأن أهل المدينة كانوا أقرب الناس إلى الرسول ρ وأبعد الناس عن الابتداع في الدين، كما لمسوا العدل من القضاة المالكيين الذين سلكوا منهجاً مطابقاً للسياسة

(١) حاتم باي، التحقيق في مسائل أصول الفقه التي اختلف النقل فيها عن الإمام مالك بن أنس، مجلة الوعي الإسلامي، مجلة كويتية شهرية جامعة تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، ص٦٦.

(٢) عبد الغني الدقر، الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، ص٢٣.

(٣) عياض، ترتيب المدارك، ج١، ص٥٤.

الشرعية، يؤدي إلى القضاء على الظلم والامتيازات والاستغلال، ويحقق العدل للجميع، وهذا ما أشار إليه ابن تيمية : «الأمصار التي يظهر فيها مذهب أهل المدينة يكون فيها من الحكم بالعدل ما ليس في غيرها»(١).

إضافة إلى ملامسة المذهب المالكي لواقع بلاد المغرب وما يمس حياتهم، لذلك اختاروه مقتنعين به مذهباً لهم.

جهود تلاميذ الإمام مالك في نشر مذهبه :

قام تلاميذ الإمام مالك بجهد عظيم في التعريف بمذهبه وترسيخه واستقراره في بلاد المغرب، فكان أكثر طلاب العلم الوافدين على الإمام مالك من بلاد المغرب، حتى بلغ عددهم أكثر من ثلاثين(٢) تلميذاً، وكان أولهم علي بن زياد التونسي (ت١٨٣هـ/ ٧٩٩م)، الذي لازم مالك وسمع منه وتأثر به، وهو أول من أدخل كتاب الموطأ إلى إفريقية (تونس) وعمل على تبسيطه وشرحه للناس حتى سهل عليهم فهمه(٣).

وجاء من بعده البهلول بن راشد، وقد تتلمذ على يد أستاذه علي بن زياد، ورحل إلى الشرق وسمع من مالك، وألف كتاباً في الفقه(٤)، كان شديد الإعجاب بعلم مالك وبإخلاصه في علمه حتى قال عنه : «ما رأيت أنزع بآية من مالك مع معرفته

(١) محمد عز الدين الغرياني، المذهب المالكي النشأة والموطن، وأثره في الاستقرار الاجتماعي، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العلمية . طرابلس، الجماهيرية الليبية، ١٣٧٨هـ، ص٣٩٣.

(٢) نجم الدين الهنتاتي، المذهب المالكي بالمغرب الإسلامي، ص٣٧.

(٣) المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، ج١، ص٢٣٥، تراجم أغلبية، ص٢٢.

(٤) الدباغ، معالم الأيمان، ج١، ص٢٦٥.

بالصحيح والسقيم»[١].

وجاء بعدهما أسد بن الفرات الذي تخرج . أيضاً . من مدرسة علي بن زياد، ورحل إلى الشرق، وسمع الموطأ من مالك، ثم رحل إلى العراق والتقى بأبي يوسف محمد بن الحسين، فجمع بين فقه العراق، وفقه المدينة[٢]، وهو أول من ألف في الفقه المالكي من خلال كتابه : «الأسدية» الذي أظهر فيه آراء مالك وأصحابه من بعده[٣]، وخاصة ابن القاسم[٤].

وجاء من بعده عبد السلام بن سعيد التنوخي المعروف بسحنون، أحد مؤسسي المدرسة المالكية في المغرب، وهو من كبار فقهاء المغرب، تلقى علومه على يد علي بن زياد، والبهلول بن راشد[٥] قراء الأسدية، وشك في بعض المسائل أنها لم تكن من فقه مالك، وأنه ربما خلط أسد بن الفرات آراء الإمام مالك ببعض آراء الحنفية في العراق، فرحل إلى المدينة بحثاً عن معرفة علم مالك الصحيح غير المخلوط بغيره، فالتقى بتلميذ الإمام مالك ابن القاسم، وقرأ عليه الأسدية، فأسقط منها بعض المسائل المشكوك في نسبتها إلى الإمام مالك، وما لم يجد فيه تصانيف درسه على اجتهاده

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٨، ص٩٥.

(٢) المالكي، المصدر السابق، ص٢٦٣.

(٣) الزواوي، مناقب الإمام مالك، ص٦٥.

(٤) ابن القاسم هو عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن حناوة الفيفي، يكنى بأبي عبد الله، ولد سنة ١٥٨هـ، أصله من الشام من فلسطين من مدينة الرملة، لازم الإمام مالك عشرين سنة، وهو أفقه الناس بمذهبه، وكان رجلاً صالحاً، وروايته في الموطأ صحيحة، قليل الخطأ، توفي بمصر سنة ١٩١هـ، وله من العمر ٦٣ عاماً، عياض، ترتيب المدارك، ج١، ص٢٠٥، ٢٥١، محمد أبو زهرة، مالك، ص٢٥٢.

(٥) عياض، المصدر السابق، ص٣٤٠.

بمقتضى أصول مالك أو برأي شبيه لرأي مالك[١].

وعاد سحنون إلى إفريقية سنة ١٩١هـ/ ٨٠٦م، وألف كتابه (المدونة) جمع فيه فقه الإمام مالك الخالص غير المختلط بغيره من الآراء، وكان سحنون متأثراً بشخصية الإمام مالك، فسار على نفس طريقة مالك في حياته ومعيشته سواء في المأكل أو الملبس، وكان سحنون هو الذي ثبت المذهب المالكي في إفريقية ومنها امتد إلى بقية أجزاء المغرب، وقد نبغ على يده عدد كبير من العلماء والفقهاء والقضاة الذين واصلوا رسالته في نشر العلم في إفريقية حتى أصبحت إفريقية من أهم المراكز الثقافية لتعليم ونشر المذهب المالكي[٢].

واختلف المؤرخون في عدد تلاميذه ما بين أربعمائة وسبعمائة[٣] طالب، تقلد معظمهم مناصب هامة إدارية ودينية فكان لهم دور كبير في نشر المذهب المالكي.

ومن تلاميذه ابن عبدوس[٤]، وعبد الله بن غافق التونسي[٥]،

(١) الهنتاتي، المذهب المالكي بالمغرب، ص٤٩.

(٢) محمد زينهم محمد عزب، الإمام سحنون، تقديم حسين مؤنس، دار الفرجاني، القاهرة، ص٧٢.

(٣) ابن فرحون، الديباج، ج٢، ص٣٧.

(٤) ابن عبدوس هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم، إمام في الفقه، اشتغل بالعلم حتى قال لقمان بن يوسف أنه أقام سبع سنين يدرس العلم، ولا يخرج من بيته إلا إلى صلاة الجمعة، وهو تلميذ سحنون، ألف كتاب سماه «المجموعة»، اعتمد فيه على المذهب المالكي، وله كتب أخرى، منها شرح المدونة، والتفاسير في أبواب الفقه. شجرة النور الزكية، ص٧٠، المالكي : رياض النفوس، ج١، ص٤٥٩.

(٥) عبد الله بن غافق التونسي، يكنى بأبي عبد الرحمن، سمع من زيد بن بشر وابن الحكم، عرف عرف بالورع والعلم والفقه، وكان أهل تونس يعتمدون عليه في الفتوى، أبو الحسن بن عبد الله =

وغيرهم[١].

وجاء من بعدهم نخبة من العلماء الذين حافظوا على المذهب المالكي في بلاد المغرب، ومنهم أبو بكر اللباد[٢]، ودراس بن إسماعيل[٣]، الذي قيل إنه أول من أدخل مدونة سحنون إلى فاس، واشتهر بها الإمام مالك في المغرب الأقصى[٤].

ومنهم أبو زيد القيرواني[٥] إمام المالكية في عصره، ومن الذين كان لهم الفضل بعد الله في الحفاظ على المذهب المالكي من الضياع أمام الخطر الشيعي

= بن الحسن النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص٢٠٣.

(١) محمد زينهم، الإمام سحنون، ص١٨٩.

(٢) ابن اللباد أبو بكر محمد بن وشاح القيرواني، جده مولى موسى بن نصير، إمام جليل، ألف عدة كتب، منها كتاب «الطهارة» و«فضائل مالك»، و«عصمة الأنبياء»، و«فضائل مكة»، توفي سنة ٣٣٣هـ. أبو زهرة، مالك ص٨٤.

(٣) دراس بن إسماعيل، يكنى أبا ميمونة، من مدينة فاس، سمع من شيوخ بلده ومن إفريقية من أبي بكر ابن اللباد، سمي دراس لكثرة درسه، توفي في فاس سنة ٣٥هـ المكناسي، أحمد بن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ط١٩٧٣م، طبع في فاس سنة ١٣٠٩هـ، مكتبة الدكتور مروان الوطنية، ص١٩٥.

(٤) المصدر السابق، ج١، ص١٩٥.

(٥) أبو زيد القيرواني هو عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن أبو محمد القيرواني، فقيه مالكي (ت٣٨٦هـ)، له عدة مصنفات، منها إثبات كرامات الأولياء، وإعجاز القرآن، حماية عرض المؤمن، رسالة في الفقه، القصائد في التوحيد، وغيرها. البغدادي، هداية العارفين، ج١، ص٤٤٧.

الفاطمي، وعُرف أبو زيد بمالك الصغير[١].

ومن الذين كان لهم جهد عظيم في نشر المذهب المالكي والمحافظة عليه في بلاد المغرب القاضي عياض السبتي[٢]، الذي استخدم عدة وسائل، منها : رفع مكانة الإمام مالك بين الناس، وذكر مناقبه وصفاته، وتوليه منصب القضاء في عهد دولتي المرابطين والموحدين، وتولى أربعة من أسرته بعده وتوليه . أيضاً . مهمة التدريس، وكذلك تأليف الكتب التي تشرح وتبسط الفقه المالكي للناس حتى يستطيعوا فهمه، مثل كتاب «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك»، وكتاب «السقا بتعريف حقوق المصطفى»، واعتمد فيه على موطأ مالك وغيرها، فكل هذه المؤلفات بسطت للناس المذهب المالكي، وساعدتهم على معرفته وفهمه، ومن ثم تقبله[٣].

وتميز أتباع المذهب المالكي بالموسوعية العلمية، فلم يقتصروا على علم بعينه، بل برعوا في كافة العلوم، كعلم القرآن والتفسير والحديث وعلومه والفقه، وعلم الكلام وغيرها، فهذا سحنون يؤلف كتابه الكبير في مائة جزء، تناول فيه السير

(١) البغدادي، المصدر السابق، ص٤٤٧.

(٢) القاضي عياض هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، من أهل سبتة، يكنى أبا الفضل، قدم إلى الأندلس طلباً للعلم، وأخذ في قرطبة عن القاضي أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين وأبي الحسين سراج ابن عبد الملك، جمع الكثير من الأحاديث، وهو من أهل العلم، وعرف بالذكاء، تولى قضاء غرناطة، ولد بمراكش سنة ٤٧٦هـ، سكن مالقة. النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص١٠١.

(٣) محمد عبد القادر السلاوي، ندوة (دورة القاضي عياض)، دور عياض في توطيد المذهب المالكي في المغرب، ج١، مراكش ١٣ . ١٤ . ١٥ جمادى الأولى ١٤٠١هـ ٢٠ . ٢١، ٢٢ مارس ١٩٨١م، مجلة دعوة الحق، مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، العدد ٢١٣، ص١٥٧/ ١٥٨/ ١٦٢.

والأمثال وآداب القضاء والفرائض والتاريخ وفنون العلم المختلفة[١].

وتميزوا . أيضاً . بكثرة التأليف في المذهب المالكي، فكتبوا الموسوعات والشروح والمختصرات، والمدونات التي تعتبر المصدر الثاني في الفقه المالكي بعد كتاب الموطأ[٢]، وهي أربعة :

١) المدونة: جهود أربعة من الفقهاء: الإمام مالك بإجاباته، وابن القاسم بتصحيحه وزيادته وقياسه، وأسد بن الفرات أول من جمعها ورواها عن مالك حتى عرفت (بالأسدية) نسبة إليه، وسحنون بتهذيبها وتبويبها وتدوينها، وأضاف إليها اجتهاد كبار فقهاء المالكية[٣].

٢) الواضحة : لعبد الملك بن حبيب[٤]، صنفها في الفقه والسنن وفق منهج الإمام مالك الجامع بين الأصول والفروع.

٣) العتبية أو المستخرجة : لمحمد بن أحمد بن عبد العزيز العتبي القرطبي[٥]، استخرجها من الروايات التي سمعت عن الإمام مالك بواسطة تلاميذه.

---

(١) ابن فرحون، الديباج، ج٢، ص٣٤.

(٢) عمر الجيدي، مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، ص٦٦.

(٣) عبد الغني الدقر، الإمام مالك بن أنس، ص٢٣٨.

(٤) أبو مروان عبد الملك بن حبيب السلمي القرطبي البيري، إمام في الحديث والفقه واللغة والنحو، انتهت إليه رئاسة الأندلس بعد يحيى بن يحيى، له عدة كتب في الفقه والأدب والتاريخ، منها الواضحة في الفقه والسنن، وكتاب في فضل الصحابة، وكتاب في غريب الحديث، وكتاب في تفسير الموطأ، مات سنة ٢٣٨هـ، أبو زهرة، مالك حياته وعصره، ص٧٤، ٧٥.

(٥) العتبي أبو عبد الله فقيه، سمع من يحيى بن يحيى، وأخذ عن سحنون، وألف المستخرج في الفقه، توفي سنة ٢٥٤هـ، وقيل ٢٥٥، أبو زهرة، المرجع السابق، ص٧٥.

٤) الموازية : لمحمد بن إبراهيم بن زياد الإسكندري المعروف بابن المواز[١].

وقد أَثْرت هذه المدونات الفقه المالكي، فتناولها علماء المغرب بالشرح والتبسيط والاختصار، حتى بلغ التأليف في المذهب المالكي مبلغاً عظيماً[٢].

المبحث الثالث : عوامل خاصة ببلاد المغرب :

يندرج تحت هذا العامل أمران هامّان كان لهما الأثر البارز في سيادة المذهب المالكي في المغرب، وهما :

١) الطبيعة السلالية لأهل المغرب :

فقد عُرف أهل المغرب بحبهم الحرية والاستقلال في الرأي والعقيدة والهدف، ولعل هذه الطبيعة الاستقلالية هي التي ساعدت سكان المغرب على مقاومة موجات الاستعمار الأجنبي التي مرت بها بلاد المغرب، والتي بدأت بالاستعمار الإغريقي، ثم الروماني، تلاه الوندال، ثم الروم البيزنطيين، وقد واجه سكان المغرب بكل شراسة كل أنواع الاستعمار، وتمكنوا بعد عدة ثورات من تحرير بلادهم من السيطرة الرومانية، ثم التخلص . أيضاً . من الوندال، والروم البيزنطيين، الذين كان نفوذهم محدوداً في بلاد المغرب.

ولعل الطبيعة الجبلية الوعرة لبلاد المغرب، أكسبت سكان (البربر) حدة الطبع

(١) ابن المواز، فقيه ألف كتاب الكبير المعروف بالموازية نسبة إليه، وهو من أجل الكتب التي ألفها المالكيون وأصحها، رجحه الفاسي على سائر الأمهات، ولد عام ١٨٠هـ، وتوفي ٢٦٩هـ، المرجع السابق، ص٦٨، الدقر، الإمام مالك بن أنس، ص٢٣٨.

(٢) عمر الجيدي، مباحث في المذهب المالكي، ص٧٢.

والعناد، والمقاومة، وعدم الاستسلام لما هو ضد طبيعتهم[١]، كما عُرف أهل المغرب بحبهم للحق واتباعهم له، وهذا ما أشار إليه النبي ρ في حديثه عن أهل المغرب، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه من حديث سعد بن أبي وقاص قال : قال رسول الله ρ: «لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق، حتى تقوم الساعة»[٢]، وفي رواية أخرى قال : حدثنا سعيد بن منصور وأبو الربيع العتكي وقتيبة بن سعيد، قالوا : حدثنا حمادٌ ـ وهو ابن زيد ـ عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي أسماء عن ثوبان، قال : قال رسول اللهρ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»[٣].

وهذا يفسر لنا إقبالهم على الإسلام بعدما استيقنوا أنه الحق، وقد وجد الفاتحون صعوبة في بادئ الأمر، ولكن بعد معرفة سكان المغرب للإسلام واقتناعهم به، دخلوا فيه طواعية، وكانوا هم الطليعة الأولى في الفتوحات الإسلامية في الغرب الإسلامي، وعلى أيديهم أتم المسلمون فتح بلاد المغرب والأندلس، وهذا يبين لنا حب الشخصية المغربية للاستقرار ونبذهم للفرقة، لذلك اقتنعوا بضرورة الالتزام بمذهب واحد يلائم شخصيتهم المحبة للسير على النهج النبوي الصحيح البعيد عن الابتداع، فوجدوا في المذهب المالكي ما يحقق رغبتهم ويوافق طبيعتهم ويوحد كلمتهم.

٢) الدور السياسي في نشر المذهب المالكي :

شهد المذهب المالكي مواقف متباينة من السلطات السياسية التي حكمت بلاد المغرب، فتارة تجد من يدعمه، وتارة أخرى تجد من يحاربه ويحاول إزالته ومحوه.

(١) حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد للطباعة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص٢٩.

(٢) الإمام مسلم، الجامع الصحيح، الطبعة التركية، المطبعة العامرة، ج٦، ص٥٤.

(٣) الإمام مسلم، المصدر السابق، ج٦، ص٥٢/ ٥٣ .

ويبدأ الدعم السياسي للمذهب المالكي من الدولة العباسية؛ إذ حرص عليه بعض خلفائها، ابتداءً من الخليفة أبي جعفر المنصور الذي أظهر إعجابه بعلم مالك، وفضله، حتى قال له : «أنت والله أعلم الناس وأعقلهم، لئن بقيت لأكتبن قولك كما تكتب المصاحف، ولأبعثن به إلى الآفاق فأحملهم عليه»[١]، وأمر ولاة الحجاز أن يكونوا وفق إرادة مالك ولا يخالفونه، فزادت مكانته عند الولاة والناس، وكان هذا من الأسباب التي أدت إلى انتشار المذهب المالكي في بلاد الحجاز، ورفعت من مكانة الإمام مالك.

وهذا الخليفة المهدي يرى الإمام مالك من بين المستقبلين في زيارته إلى المدينة، فينحرف إليه الخليفة المهدي ويعانقه ويسلم عليه، فيلتفت إليه مالك قائلاً : يا أمير المؤمنين إنك تدخل الآن المدينة فيمن يقوم عن يمينك وعن يسارك، وهم أولاد المهاجرين والأنصار، فسلم عليهم، فإنه ما على وجه الأرض قومٌ خيرٌ من أهل المدينة، ولا يلد خير من المدينة، ثم طلب المهدي من مالك أن يسمع كتبه عليه، فقال مالك : هذا شيء يطول عليك، ولكن أكتبها وأصححها، وأبعث بها إليك[٢].

فهذه الروايات تدل على المكانة والدعم السياسي الذي حظي به الإمام مالك، وعلى الرغم من أن العباسيين تمسكوا بالمذهب الحنفي في العراق، إلا أنهم أظهروا اهتماماً وتسامحاً كبيراً تجاه المذهب المالكي، وخاصة في بلاد المغرب مما سهل انتشاره، وقد أفسح بنو الأغلب[٣] التابعين اسمياً للدولة العباسية المجال المالكي،

(١) الدقر، الإمام مالك بن أنس، ص١٣٢ .

(٢) الدقر، المرجع السابق، ص١٣٩.

(٣) ينسبون إلى إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي، ولاه هارون الرشيد إفريقية، واستقل بحكمها مع البقاء والولاء للخلافة العباسية، وتوارث حكمها أبناؤه من بعده، بنى مدينة القصر القديم، مات سنة ١٩٦هـ، تمكن الأغالبة من ضبط أفريقية، وفتحت في عهدهم جزيرة صقلية في =

فتولى القضاءَ في عهدهم فقهاءُ مالكيون من أمثال أسد بن الفرات، كما سمحوا بتدريس المذهب المالكي، وبذلك انتشر المذهب المالكي في عهدهم حتى فاق المذهب الحنفي(١).

ثم ما لبث أن شهد انحساراً سياسياً وليس شعبياً بسبب قيام الدولة الفاطمية التي حاربت جميع المذاهب السنية في بلاد المغرب وعلى رأسها المذهب المالكي، وأعلنت المذهب الشيعي مذهباً رسمياً لبلاد المغرب، وحاولت فرضه بالقوة على أهل المغرب، إلا أنهم أظهروا نفوراً ومقاومة شديدة له(٢).

وبعد عدة حروب ووقائع طويلة خرج المذهب المالكي من هذا الصراع المذهبي منتصراً، وذلك بعد إعلان الأمير الصنهاجي المعز(٣) باديس قطع التبعية

= عهد زيادة الله في الأغلب سنة ٢١٢هـ، وسقطت دولة الأغالبة بعد دخول الفاطميين بلاد المغرب على يد أبي عبد الله الشيعي سنة ٢٩٦هـ، ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار المغرب والأندلس، تحقيق ج. س كولان و أ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة . بيروت . الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م، ج١، ص٩٢ وما بعدها.

(١) عمر الجيدي، مباحث المذهب المالكي، ص٣٩٢ .

(٢) عمر الجيدي، المرجع السابق، ص٤١.

(٣) هو المعز بن باديس بن المنصور بن ملكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، تولى إفريقية سنة ٤٠٦هـ، وكان بينه وبين قبائل زناتة عدة حروب ووقائع، رفض المذهب الشيعي، وأعلن قطع الدعاء لهم سنة ٤٤٠هـ على عهد الخليفة الفاطمي المستنصر، ودعا للقائم بن القادر من خلفاء الدولة العباسية، فانتقم منه المستنصر الفاطمي بإرسال عرب بني هلال الذين اجتاحوا بلاد المغرب، وتمكنوا من إخراج المعز من القيروان وانتقاله إلى المهدية، وبقي فيها حتى مات سنة ٤٥٤هـ، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ضبط الحواشي والفهارس خليل شحادة، راجعه سهيل زكار، دار الفكر للطباعة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ج٦، ص٢١١.

للدولـة الفاطميـة، واتبـاع الخلافـة العباسـية، وإعـلان المـذهب المـالكي مـذهباً رسـمياً للدولة[١].

كما ساد المذهب المالكي . أيضاً . في عهد أول إمارة إسلامية في بلاد المغرب وهي إمارة نكور[٢] التي تقع في منطقة الريف في المغرب الأقصى، والتي أسسها أسرة آل صالح الحميريين الذين نشروا الإسلام بين قبائل المغرب، وكانوا على المذهب المالكي، وكان لهم الفضل في مقاومة المد الشيعي الخارجي في المغرب الأقصى[٣]، وكذلك انتشر المذهب المالكي في المغرب الأقصى مع قيام دولة الأدارسة، وإعلان الأمير إدريس الثاني[٤] (١٩٢هـ/ ٢١٣هـ . ٨٠٨/ ٨٢٨م)، المذهب المالكي مذهباً رسمياً لدولته، وقوله : «نحن أحق باتباع مذهب مالك وقراءة كتاب

(١) ابن خلدون، العبر، ص٢١١.

(٢) أسسها صالح بن منصور الحميري وهو المعروف بالعبد الصالح، دخل بلاد المغرب في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، ونزل مرسي تمسامان على البحر، وعلى يديه أسلمت قبائل صنهاجة وغمارة، توفي سنة ١٣٢هـ، وكان له من الولد ثلاثة : المعتصم وإدريس وعبد الصمد، وفي عهد إدريس بنيت مدينة نكور وأصبحت عاصمة لإمارة آل صالح بدلاً من تمسامان، وبقيت هذه الإمارة إلى أن سقطت على يد المرابطين، البيان المغرب، ج١، ص١٧٦/ ١٧٧، البكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ج٢، ص٢٧٤.

(٣) البكري، المسالك والممالك، ص٢٧٥.

(٤) إدريس بن إدريس بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ولد سنة ١٧٧هـ، وأمه أم ولد تدعى كنزة، يكنى بأبي القاسم، أخذ له البيعة مولاه راشد عندما بلغ الحادية عشرة من عمره، بنى مدينة فاس، له من الأبناء اثنا عشر ولداً، توفي سنة ٢١٣هـ وعمره ٣٣ سنة، ودفن بفاس. المكناسي، جذوة الاقتباس، ج١، ص١٦١.

الموطأ»[١].

وفي سنة ١٩٢هـ/ ٨٠٨م أسس إدريس الثاني مدينة فاس، وجعلها عاصمة سياسية ودينية لدولته، وقد استقبلت هذه المدينة في عهده عدداً كبيراً من مهاجري الأندلس المالكيين الذين فروا عقب حادثة الربض[٢]، وكذلك عدداً آخر من المهاجرين القرويين الفارين من اضطهاد بعض ولاة المغرب[٣]، فكانت مدينة فاس تشمل عدوة الأندلس وعدوة القرويين، وأنشئ في عدوة القرويين جامع القرويين وجامعة القرويين، وفيهما بدأ التعليم للفقه المالكي في المغرب الأقصى وتجذر[٤].

وتعزز نفوذ المذهب المالكي بقيام دولة المرابطين في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، خاصة زمن الأمير علي بن يوسف بن تاشفين[٥]، الذي عرف بإيثاره واهتمامه ومشاورته أهل الفقه، وبلغ من اهتمامه بالفقهاء أنه كان يشترط

(١) عمر الجيدي، مباحث في المذهب المالكي، ص٢٠.

(٢) حادثة الربض وقعت في عهد الأمير الحكم بن هشام، وتزعمها بعض الفقهاء، منهم يحيى بن يحيى الليثي والمولدين، وطالبوا فيها بخلع الحكم بن هشام، وكان اجتماعهم بحي الربض القريب من قرطبة، ثم تقدموا إلى قصر الأمير الحكم، فقاتلهم وأحرق دورهم، وهدم حي الربض الذي يسكنونه، ففر من نجا منهم إلى فاس، عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد زينهم، محمد عزب، دار الفرجاني، القاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص٣٠.

(٣) المكناسي، جذوة الاقتباس، ج١، ص٣٨.

(٤) عبد الهادي التازي، جامع القرويين، المسجد والجامعة بمدينة فاس، دار الكتاب اللبناني . بيروت، ١٩٧٢، ج١، ص٥٦.

(٥) علي بن يوسف بن تاشفين بن إبراهيم اللمتوني، تولى الخلافة ٥٠٠هـ، وملك بلاد المغرب والأندلس، خطب له على أكثر من ألفا منبر، توفي سنة ٥٣٠هـ، المكناسي، المصدر السابق، ج٢، ص٤٥٩/ ٤٦٠.

على القاضي عند توليه ألاّ يقضي إلا بمحضر أربعة من الفقهاء، لذلك عظم أمر الفقهاء في عهده، وخاصة فقهاء المذهب المالكي، حتى نفقت كتب المذهب لشدة الإقبال عليها والعمل بمقتضاها ونبذ سواها(١)، وترتب على ذلك توسع المذهب المالكي الذي ازدهر في عصر المرابطين.

وبسقوط الدولة المرابطية وقيام الدولة الموحدية(٢) سنة ٥٤١هـ، مر المذهب المالكي بفترة عصيبة، حيث ضُيِّق على فقهاء المالكية وعورض مذهبهم، خاصة في عهد يعقوب ابن يوسف بن عبد المؤمن(٣)، حيث طلب من الناس ترك الاشتغال بعلم الرأي، وتوعد بالعقوبة من ضرب وقتل كل من يتمسك بكتب الفقه المالكي، فحاول محو المذهب المالكي وإزالته من المغرب، وحمل الناس على العمل بظاهر القرآن والحديث، فعظم أمر الظاهرية في عهده(٤)، غير أن هذه المحنة التي مر بها المذهب المالكي زالت بزوال دولة الموحدين ومجيئ دولة بني مرين الذين أعادوا للمذهب المالكي هيبته، فسيطر وحده في ميدان التشريع والعبادات مثلما كان في عهد

(١) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص١٥١.

(٢) ينسبون إلى المهدي محمد بن تومرت من قبيلة هرغة من بطون قبائل المصامدة، رحل إلى المشرق طلباً للعلم وإلى قرطبة، قيل إنه التقى أبا حامد الغزالي، أقام بمكة زمناً، وعاد إلى المغرب بعد أن التقى بأئمة الأشعرية، وأعجب بطريقتهم في الانتصار للعقيدة السلفية والدفاع عنها، وبدأ الأتباع يلتفون حوله، نجح في القضاء على دولة المرابطين، توفي سنة ٥٢٤هـ، وتولى بعده عبد المؤمن الكومي، وتوارث أبناؤه حكم دولة الموحدين حتى سقطت سنة ٦٤٠هـ، الناصري الاستقصاء، ص١٣٠/ ١٣١.

(٣) يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن (المنصور) ولد بمراكش سنة ٥٥٠هـ، وتولى الخلافة سنة ٥٨٥هـ، قاد معركة الأرك سنة ٥٩١هـ ضد النصارى المسيحيين وانتصر عليهم، توفي سنة ٥٩٥هـ، المكناسي، المصدر السابق، ج٢، ص٥٥٦.

(٤) الدقر، الإمام مالك بن أنس، ص٢٨٢.

المرابطين[1].

أيضاً كان لحكام بني زيان جهود عظيمة في نشر المذهب المالكي في المغرب الأوسط، وعلى رأسهم أبو محمد موسى الأول (٧٠٧ . ٧١٨هـ/ ١٣٠٨ . ١٣١٨م) أو تاشفين الأول (٧١٨ ـ ٧٣٧هـ/ ١٣١٨ . ١٣٣٧م) فقد تبنوا المذهب المالكي، وعملوا على نصرته وتشجيعه من خلال بناء المؤسسات التعليمية من مدارس ومساجد وزوايا، وعملوا على استقطاب أبرز العلماء المالكيين للتدريس بها، من أمثال العالم أبو موسى عمر المشذالي، وهو من أعلم الناس بفقه مالك، وتولى التدريس وأقبل طلبة العلم على الدراسة في هذه المؤسسات التعليمية من كل أنحاء المغرب، وأسند بنو زيان القضاء للفقهاء المالكيين، واعتمدوا في الفتوى على الموطأ والمدونة وألزموا القضاة بالحكم بمذهب الإمام مالك[2].

ومن خلال هذا الاستعراض للمواقف السياسية في بلاد المغرب يتضح لنا موقفين: أحدهما داعم للمذهب المالكي، تمثل في بعض الدول التي ذكرناها آنفاً، التي حكمت بلاد المغرب، وتبنت المذهب المالكي وعملت على نشره.

وآخر رافض له، بل ومحارب له، حاول بكل الوسائل إزالته وإحلال مذاهب أخرى بديلة له ومحاولة إجبار الناس على قبولها، ولكن بالرغم من كل هذه المحاولات

(١) التازي، جامع القرويين، ج١، ص٦١ .

(٢) بنو زيان أو بنو عبد الواد، هم سلالة بربرية حكمت غرب الجزائر في الفترة (٦٣٣هـ . ١٢٣٥م/ ١٥٥٤م) ويرجع أصلهم إلى قبيلة زناتة البربرية التي استقرت في الصحراء الكبرى، ثم هاجرت في القرن الحادي عشر إلى شمال إفريقيا، وانضموا إلى الموحدين، فنقلت لهم الدولة الموحدية إدارة مدينة تلمسان، وبعد سقوط دولة الموحدين استقل أبو يحيى يغمر أسن بالحكم لمدة ٤٧ سنة، تمكن خلالها من تأسيس دولة قوية، ابن خلدون، العبر، ج٧، ص٩٧/ ٩٨.

صمد المذهب المالكي، وبقي الأول ببلاد المغرب، وهذا يفسر لنا قوة تمسك أهل المغرب بالمذهب المالكي، وتجذره في أنحاء المغرب وقوة تأثير الناس على إرادة الحكام، وإجبارهم على قبول ما يرونه حقًّا.

المصادر والمراجع :

(١) القرآن الكريم.

(٢) البغدادي (إسماعيل باشا) هداية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، وكالة اسطنبول ١٩٥١م، أعادت طبعة بالأوفست دار إحياء التراث العربي . بيروت . لبنان.

(٣) البكري (أبو عبيد الله بن عبد الله بن عبد العزيز) ت٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

(٤) الترمذي (أبو عيسى) «الجامع الكبير» تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت . لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

(٥) الحاكم (ابن عبد الله محمد النيسابوري) «المستدرك على الصحيحين» تحقيق عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

(٦) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م : «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، ضبط المتن والحواشي خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر للطباعة.

(٧) الدارقطني (علي بن عمر أبو الحسن) سنن الدارقطني، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، دار المعرفة، بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

(٨) الذهبي (محمد أحمد عثمان) سير أعلام النبلاء، إشراف شعيب الأرنؤوط، تحقيق علي أبو زيد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

(٩) الدباغ (أبو زيد عبد الرحمن الأنصاري) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله وعلق عليه أبو الفضل القاسم يحيى بن ناجي التنوخي، تصحيح إبراهيم شبوخ، مكتبة الخانجي بمصر، الطبعة الثانية ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

(١٠) الرجراجي (أبو الحسين بن سعيد) مناهج التحصيل ونتائج لطائف التأويل في شرح المدونة وحل مشكلاتها، تقديم علي علي لقم، تحقيق أبو الفضل الدمياطي، مركز التراث الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، ودار ابن حزم للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

(١١) الزواوي (عيسى بن مسعود) مناقب سيدنا الإمام مالك، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

(١٢) السيوطي (جلال الدين) تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك، تحقيق هشام بن محمد الحسيني، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

(١٣) ابن عذاري (أبو عبد الله محمد المراكشي) ت٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م : «البيان المغرب في أخبار الأندس والمغرب» ٤ أجزاء، تحقيق ج. س كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م.

(١٤) ابن العماد (شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد العسكري الحنبلي الدمشقي) ت١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م : «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

(١٥) ابن عبد البر (أبي عمر يوسف النمري) تجريد التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد أو التقصي لحديث الموطأ وشيوخ الإمام مالك، وفي آخره : ما لم يذكر في الموطأ من رواية يحيى بن يحيى عن الإمام مالك، عن نسخة عارف حكمت في المدينة المنورة عنيت بنشره دار الكتب المصرية، مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان.

(١٦) القاضي عياض السبتي (أبي الفضل بن موسى) ت٥٧٥هـ/ ١٦٧٩م : «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ضبط وتصحيح محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

(١٧) ابن فرحون (إبراهيم بن علي بن محمد اليعمري) ت٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب» تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، جزآن، مكتبة إحياء التراث، القاهرة ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

(١٨) ابن الفخار القرطبي (أبو محمد عبد الله محمد بن عمر) الانتصار لأهل المدينة، تحقيق محمد التمسماني، مركز الدراسات والأبحاث، إحياء التراث، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط المغرب، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

(١٩) المكناسي (أحمد بن القاضي) جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار

المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، طبعة ١٩٧٣م، طبع في فاس سنة ١٣٠٩هـ مكتبة الدكتور مروان الوطنية.

(٢٠) مسلم (أبي الحسن مسلم بن الحجاج ابن مسلم القشيري النيسابوري) طبعة مصححة ومقابلة مع عدة مخطوطات، الطبعة التركية، المطبعة العامرة.

(٢١) بن ماجة (أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني) السنن، تحقيق شعيب الأرناؤوط، محمد عامل قرة بللي، أحمد برهوم، دار الرسالة العالمية، دمشق . سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

المراجـع :

(١) حسين مؤنس :

-معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد للطباعة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

(٢) عبد الغني الدقر :

-الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

(٣) عمر الجيدي :

-مباحث في المذهب المالكي، الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

(٤) محمد أبو زهرة :

-مالك حياته وعصره . آراؤه وفقهه، دار الفكر العربي للنشر ودار الثقافة العربية للنشر ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.

(٥) محمد مخلوف :

-شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية القاهرة ١٣٤٩هـ.

(٦) محمد عز الدين الفرياني :

-المذهب المالكي النشأة والموطن وأثره في الاستقرار الاجتماعي، منشورات الدعوة

الإسلامية العلمية، طرابلس . الجماهيرية الليبية ١٣٧٨هـ.

(٧) محمد زينهم محمد عزب :

-الإمام سحنون تقديم حسين مؤنس، دار الفرجاني، القاهرة.

(٨) نجم الدين الهنتاتي :

-المذهب المالكي بالغرب الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، منشورات تبر الزمان، تونس ٢٠٠٤م.

الدوريات :

(١) حاتم باي :

-التحقيق في مسائل أصول الفقه التي اختلف النقل فيها عن الإمام مالك بن أنس، مجلة الوعي الإسلامي، مجلة كويتية شهرية جامعة، تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

(٢) محمد عبد القادر السلاوي :

-دور القاضي عياض في توطيد المذهب المالكي في المغرب، ندوة (دورة القاضي عياض) مجلة دعوة الحق، مجلة شهرية تعني بالدراسات الإسلامية العدد ٢١٣.

(٣) محمد التأويل :

-خصائص المذهب المالكي، الدروس الحسنية التي تُلقى بحضرة أمير المؤمنين الملك محمد السادس بمناسبة شهر رمضان http://ww.docstoc.com.